المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

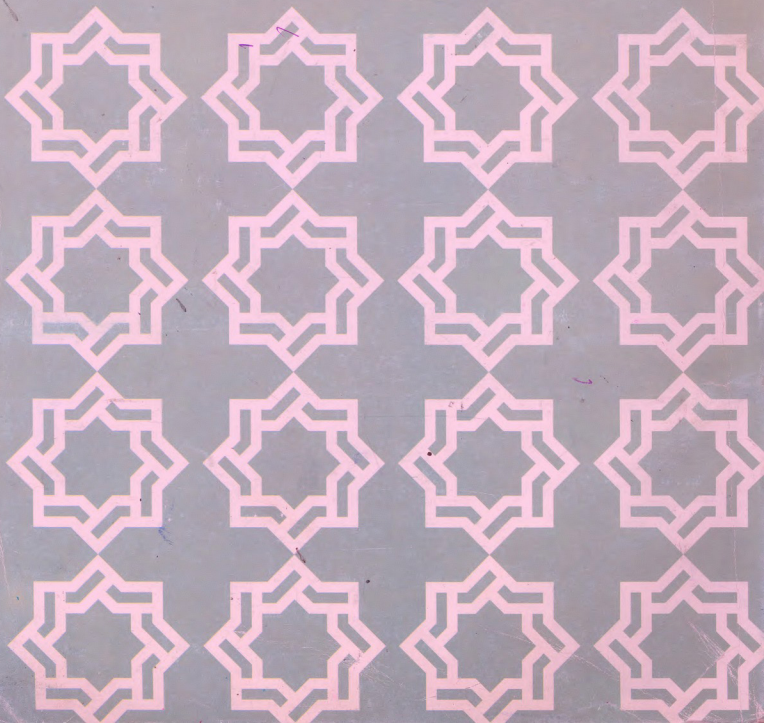

الرجز وصلته بوصف الصيد والطرد

بقلم

عباس مصطفى الصالحي

اعدادية بعقوبة للبنين ـ العراق

الرجز بحر من بحور الشعر ، واجزاؤه « مستفعلن » ست مرات ، ولقد جوزوا فيه تغيير قافية كل بيت من ابياته في الارجوزة بشرط التزام التصريع بين شطريه(١) . وربما عد بعضهم مشطور السريع ، ومنهوك المنسرح من الرجز ايضا(٢) .

وتقودنا تسمية هذا البحر بالرجز الى الصلات التي تربطه بمعنى الفعل الاصيل ، فالرجز لغة (ارتعاد يصيب البعير والناقةفي افخاذهما ومؤخرهما عند القيام)(٣) وفي ذلك حركة واضطراب ، (والارتجاز : صوت الرعد المتدارك . وارتجز الرعد ارتجازا اذا سمعت له صوتا متتابعا)(٤) ، ولذا سمي بحر الرجز كذلك ، (لتقارب اجزائه وقلة حروفه)(٥) ، وهذا واضح في « مستفعلن » المكونة من سببين ووتد ، وما فيها من تلاحق الحركات والسكنات التي توحي بالحركة والاضطراب ايضا .

كان الشعر قبل الخليل نوعين ، رجزا وقصيدا ، (فكل شعر لم يكن رجزا سموه قصيدا)(٦) اما تسميات البحور فما كانت معروفة عندهم ، وانما ابتكرها الخليل بعد ان قيض له اكتشاف الصلات النغمية ، والملامح الموسيقية في مجاميع الشعر العربي .

ويبدو ان الفحول من شعراء الجاهلية كانوا يترفعون عن النظم رجزا حتى جاء الاغلب العجلي (قتل في معركة نهاوند ٢١هـ) ، (وهو اول من شبه الرجز بالقصيد واطالة ، وكان الرجز قبله انما يقول الراجز منه البيتين او الثلاثة ، اذا خاصم او شاتم)(٧) ، فالاغلب العجلي هو الذي ابتكر الارجوزة وهي القصيدة التي نظمت وفق بحر الرجز ، ولقد صاغ الشماخ بعض شعره رجزا ، ثم وجدنا بعد منتصف القرن الاول فئة ارتجزوا قليلا ، ولاسيما في الهجاء ، منهم الاخطل والفرزدق والبعيث ، ولاحظنا في هذه الفترة شعراء مارسوا القصيد والرجز مع غلبة القصيد مثل جرير وذي الرمة وعمرو بن لجأ والشمردل ، وبعضهم غلب عنده نظم الرجز على القصيد ، ومنهم حميد الارقط وابو نجم العجلي الذي راجز العجاج وغلبه ، واستعمل ابو نجم الرجز في المديح والهجاء ووصف الصيد والفهود ، ووجدنا شعراء هجروا القصيد وانصرفوا الى الرجز ، واشهرهم العجاج الذي سار على مذهب شعراء القصيد ، والتزم نهج القصيدة العربية ، من نسيبوطلليات ووصف الفيافي وحيوان الصحراء ، وتشبيه الناقة بالوحش ، ثم الانعطاف نحو الغرض الرئيس من مدح ، او فخر وغير ذلك ؛ ومن شعراء الاراجيز ايضا دكين الراجز وابو نخيلة الحماني وابو مرقال عطاء بن اسيد السعدي المعروف بالزفيان ورؤبة وابنه عقبة ، ثم اندرس هذا اللون من الاراجيز ، حيث كان ابو العباس العماني اخر الرجاز(٨) .

واقتصر الشعراء في اواخر القرن الاول واوائل

---

(١) الادب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه ، معروف الرصافي: ٦٤(بغداد ١٩٥٦) .

(٢) العمدة لابن رشيق القيرواني : ١٨٣/١ ـ ١٨٤ (ط٢ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥) .

(٣) لسان العرب (رجز) .

(٤) اللسان (رجز) .

(٥) اللسان (رجز) .

(٦) الادب الرفيع : ١٢ .

(٧) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٦١٣/٢ (تحقيق احمد محمد شاكر القاهرة ١٩٦٧) .

(٨) تاريخ الاداب العربية ، كارلو نالينو ، ١٦٧ ـ ١٩٠ (القاهرة ١٩٥٤) .

الثاني على استعمال الرجز المشطور . وكان على شكل مقطعات تناولت موضوعات خاصة ارتجالا ، او في الرثاء . او الهجاء ، او وصف الحيوان او الصيد ، او الملح والحكايات المضحكة . ولقد نبغ الشمردل في نظم اراجيز متعددة في وصف الصقر والكلب والصيد ، وكان ذلك بعد منتصف القرن الاول ، وتلك موضوعات عالجها الشعراء قصيدا ايضا(٩) .

ولقد داب شعراء العصر العباسي في القرن الثاني والثالث والرابع على اتباع هذا المنهج في صوغ موضوعات خاصة بالرجز المشطور ، ولذا كثرت الاراجيز في الطرد ، فوصفوا الصيد وحوادثه ووسائله ، كالكلاب والفهود والبزاة وغيرها ، وغلب الرجز على سائر الاعاريض في هذا الموضوع ، ولم يأنف كبار الشعراء النظم بهذا الوزن . امثال الفضل ابن عبدالصمد الرقاشي وابي نواس والناشيء الاكبر وابن المعتز ، وابي فراس الحمداني وغيرهم .

ومن الموضوعات الاخرى التي صيغت رجزا : الرثاء واشهرها مرثية ابي نواس في استاذه خلف الاحمر(١٠) (وهو حي ، وقد قرا خلف المرثية واعجب بها)(١١) ، وكان الرجز مطواعا في نظم الحوادث التاريخية والفنون والمعارف العلمية ، وهو ما اصطلح على تسميته بالشعر التعليمي(١٢) .

لقد كان الرجز بحرا عاميا بدويا ، فانتشر لسهولته وملاءمته لظروف الارتجال ، ووجدنا ان شعراء القبائل حريصون على رفع شأنه ، لينافوا به اساليب الشعر المدني ، فاخترعوا الارجوزة بمعناها الخاص ، والذي شابهت به القصيدة من حيث منهجها واغراضها وعالجوا بها موضوعات بدوية بالفاظ غريبة بعيدة عن افهام الحضر(١٣) .

وفي اوائل العصر العباسي اختفى هذا اللون من الاراجيز الحقيقية ، ويرجع نالينو ذلك الى ضربين من الاسباب ، صناعية وطبيعية ، فالصناعية تتعلق بتعذر حفظ روي واحد في الاراجيز الطولى ذات الابيات القصيرة من مشطور الرجز . فضلا عن ان ذلك الروي الوحيد لتلك الابيات يؤدي الى الملل ، كما انه يصعب حصر المعنى الواحد في بيت من الرجز المشطور ، وقد يستغرق البيتين او الثلاثة

(٩) تاريخ الاداب العربية : ١٩٠ ـ ١٩٢ .
(١٠) النقد الادبي واثره في الشعر العباسي ، ناصر الحاني : ١٨٢ (بغداد ١٩٥٥) .
(١١) تاريخ الاداب العربية : ١٩٢ ، النقد الادبي : ١٢٨ .
(١٢) تاريخ الاداب العربية : ١٩٣ .
(١٣) تاريخ الاداب العربية : ١٩٤ .

او الاربعة ، وربما اكثر من ذلك ، وهذا من شأنه ان يفسد المعنى ، ويولد التعقيد . اما الاسباب الطبيعية فتعود الى ان الارجوزة بدوية معنى ولفظا ، لذا ترفع شعراء العصر العباسي عنها ، لانهم بعيدون عن بيئتها ، ومن الصعب ان يتكلف الانسان شيئا بعيدا عن طبعه وخلقه(١٤) .

امتازت الاراجيز بالتصريع ، وهذا يستدعي حشد كلمات كثيرة متحدة الروي ، ومن المعقول الا تكون كلها مألوفة ، لذا وجدنا غريب اللغة واضحا فيها ، وثمة عامل اخر لغرابة الالفاظ ، وهو ان الارجوزة تتناول بالوصف البادية وما فيها من خشونة واغراب . ولم تقتصر الغرابة على الالفاظ ، وانما تعدتها الى بناء الكلمات واشتقاقها . فاننا نجد مصادر وجموعا وصفات مشتقة ، وافعالا لم تنج من الغرابة في الصياغة الصرفية . مجاراة للوزن والقافية ، وتمشيا مع قصر الابيات . ولذا كانت الابيات قصيرة ، وربما توزعت على اكثر من بيت واحد ، ويؤدي الحرص على الوزن كذلك الى كثرة الجمل الاعتراضية والعبارات المقطعة ، ولقد تجلت الغرابة اللفظية والمعنوية في قوافي الارجوزة ايضا ، كما انها امتازت على القصيد بالدقة والاستقصاء ولا سيما في الوصف وكثر فيها الفخر والاستطراد ، كما انها تحلت احيانا بجمال ملحوظ ، وبالاخص في النسيب والوصف والفخر ، لانها فنون غنائية ، فتتجاوب مع هذا الوزن واصوله(١٥) .

ولم يترك الاراجيز وشأنهم في هذا المضمار ، بل كانت هناك منافسات وتحديات بينهم وبين شعراء الحضر ، ولقد روى الاصفهاني قصة تلك الملاحاة التي نشبت بين بشار وعقبة بن رؤبة في مجلس والي البصرة عقبة بن سلم ، وكيف تغلب بشار على ابن رؤبة بارجوزته التي مطلعها :

يا طلل الحي بذات الصمد
واليه خبر كيف كنت بعدي(١٦)

ويقول الدكتور شوقي ضيف في هذا الشأن : (وليس بشار وحده الذي اثبت انه يستطيع التفوق على شعراء البادية على ارجازهم المملؤة بالغريب فقد تبعه ابو نواس يحاول ان يهزمهم هزيمة ساحقة في هذا الميدان ، وكان ابو نخيلة قد سبقه الى صنع اراجيز كثيرة في الطرد والقنص ، يصف فيها الصيد والكلاب والوحش على طريقة القدماء ، فصنع على

(١٤) تاريخ الاداب العربية : ١٩٤ .
(١٥) تاريخ الشعر السياسي ، احمد الشايب : ٣٣٦ ـ ٣٣٧ (ط٤ القاهرة ١٩٦٦) .
(١٦) الاغاني (دار الكتب) : ١٧٤/٣ .

مثال طردياته طرديات جديدة اظهر فيها براعة وتفوقا منقطع النظير)(١٧) .

وهذا ما يكشف امامنا سر تمسك الشعراء باصطناع الرجز في شعر الطرد ، والتزام الغريب فيه ، ليثبتوا لشعراء البادية انهم قادرون على النظم في هذا اللون البدوي ، وان كان بعيدا عن بيئتهم (ولعل في هذا ما يدل ــ من بعض الوجوه ــ على مدى ما كان يأخذ به الشاعر الحضري في تلك الازمان نفسه من التثقف ثقافة عميقة بالشعر العربي الموروث واللغة العربية الصحيحة ، يأخذها عن اهلها بالمربى فيهم ، او الرحلة الى بواديهم)(١٨) وهذا هو الراي الذي يذهب اليه نالينو ايضا(١٩) .

أما الدكتور جميل سعيد فيقول : (ان الرجز اكثر ملاءمة لوصف الصيد من القصيد ، ذلك اننا حين نتبع تاريخ الرجز ، نراه لا يقال الا في المواطن يقلق الانسان فيها قلقا ماديا يصحبه قلق نفسي)(٢٠) ثم ضرب امثلة لذلك بالاستقاء من الابار ، والمبارزة وعدها (من الامور التي يقلق الانسان فيها نفسيا مع قلقه المادي الحسي ، والصيد شبيه بهذه المواطن ، فالانسان يرى الطريدة ويجري في أثرها)(٢١) ثم يقول : (ويبدو لي أن ابا نواس حين وصف الصيد بالرجز ، سار وراء طبيعته وعاطفته ولم يقلد غيره)(٢٢) .

ولي بعض الملاحظات على اراء الدكتور هذه ، اولاها : أن اغلب الذين وصفوا الصيد والطرد في العصور التي سبقت عصر ابي نواس كانوا سائرين وراء طبيعتهم وعاطفتهم ، فلماذا لم يهتدوا الى الرجز ؟ ولنأخذ امرأ القيس مثلا ، فأنه يعتبر امام شعراء الطرد . وثانيتها : ان شعراء الاراجيز امثال الاغلب والعجاج ، قد نهجوا من حيث الاغراض نهج القصيد ، وطرقوا ابوابه ، ولم يقتصر الرجز على موضوعات القلق والارتجال . وثالثهما : انه لا يجوز القول ان ابا نواس لم يقلد غيره . وفي العصر الاموي (كان الشمردل صاحب قنص وصيد بالجوارح ؛ وله في الصقر والكلب اراجيز كثيرة)(٢٣) ، ولقد

(١٧) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، الدكتور شوقي ضيف : ١٢٦ (ط٦ دار المعارف بمصر) .
(١٨) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ١٢٦ .
(١٩) تاريخ الاداب العربية : ١٩٣ .
(٢٠) الوصف في شعر العراق ، الدكتور جميل سعيد : ٢٣٠ ــ ٢٣١ (بغداد ١٩٤٨) .
(٢١) الوصف في شعر العراق ، : ٢٣٠ ــ ٢٣١ .
(٢٢) المصدر السابق : ٢٣٠ ــ ٢٣١ .
(٢٣) هو الشمردل بن شريك بن عبدالملك ، من بني ثعلبة بن يربوع من تميم ، وهو شاعر مقتدر ، صحيح اللغة ، متين السبك ، نجد له احيانا غرابة في الالفاظ ، اشهر فنونه الرثاء في اخوته ، وله طرد جيد ، ثم له اشياء من المدح والخمر والغزل . ذكر خير الدين الزركلي ان وفاته كانت نحو (٨٠ هـ ــ ٧٠٠ م) ، انظر الاعلام : ٣ / ٢٥٥ (ط ٣ بيروت ١٩٦٩) ، ولقد حقق عمر فروخ في وفاته فكانت بعد عودته من خراسان وانه كان يحيى في ايام سليمان ابن عبدالملك ، وهو من اتراب الفرزدق وجرير ، ثم توقع ان تكون وفاته بعد سنة (١٠٠ هـ ــ ٧١٨ م) مستندا على حادثة وقعت له مع الفرزدق اذ اغتصب من الشمردل بيتا جعله في قصيدة ذكر فيها مقتل قتيبة بن مسلم (٩٦ هـ ــ ٧١٥ م) ، انظر تاريخ الادب العربي (فروخ) : ٥٨٦/١ وهو الراجح عندي للاسباب المعقولة التي ذكرها عمر فروخ .
(٢٤) الاغاني : ٣٦١/١٢ .
(٢٥) الاغاني : ٣٦١/١٢ .
(٢٦) الاغاني : ١٠٢/١٦ .
(٢٧) هو ابو نجم الفضل (او المفضل) بن قدامة العجلي ، ولد حوالي (٤٠ هـ) وكان مسكنه في ضواحي الكوفة . وكان ياوي الى المساجد ، اتصل بعبد الملك بن مروان والحجاج ، ووفد على هشام ابن عبدالملك وكان قد ناهز السبعين ، واقطعه موضعا بقي فيه حتى مات سنة (١٢٠ هـ ــ ٧٣٨ م) في الاغلب . انظر تاريخ الادب العربي (فروخ) ــ ٦٨٢/١ ــ ٦٨٣ .
(٢٨) الاغاني : ١٦٠/١٠ .
(٢٩) اسمه يعمر ، وانما كني ابا نخيلة لان امه ولدته الى جنب نخلة وهو من بني حمان ، كان شاعرا مكثرا غلب عليه الرجز ، مدح ابا جعفر المنصور بارجوزة حضه فيها على تحويل ولاية العهد الى ابنه محمد المهدي ، ففضب عيسى بن موسى ودبر قتله ، وقد حمل المنصور عيسى بن موسى على ان يخلع نفسه من ولاية العهد سنة (١٥٠ هـ ــ ٧٦٧ م) ولذا يكون مقتل ابي نخيلة قبل ذلك .

سجل الاصفهاني له ارجوزة عدتها خمسة عشر بيتا في وصف القنص بالصقر(٢٤) ، وكذلك محمد بن بشير الخارجي ، وهو (من شعراء الدولة الاموية)(٢٥) فقد ذكر له الاصفهاني ايضا ارجوزة في المولى الصائد اثر خبر عن خروجه مع جماعة يرمي الاروى، وهي تقع في سبعة ابيات(٢٦) .

ولقد وجدت لابي نجم الراجز(٢٧) ابياتا اربعة في وصف الفهد ، وهي مما رواه الاصفهاني(٢٨) ، واني أعتقد انه من غير المعقول اقتصار محاولة ابي نجم على هذه الابيات ، على ما فيها من وضوح وبعد عن التعقيد ، وهذا مما لم يعرف في شعر الطرد ؛ واستطيع أن اتصور محاولات اخرى لهذا الراجز . ولكنها لم تصل الينا .

وثمة راجز اخر هو ابو نخيلة الحماني(٢٩) ، قال ابن المعتز عنه : (وله في الطرد اراجيز كثيرة

مشهورة)(٣٠) ، وصف بها الصيد ووسائله وطرائده واورد له طرديتين في وصف طرد النعام ، وقال أن (اعاجيب ابي نخيلة في القنص وغيره كثيرة)(٣١) ، ووجدت في العصر العباسي الاول شعراء آخرين قد نظموا في وصف الطرد ، منهم الرقاشي(٣٢) ، اذ روى الجاحظ له ارجوزتين في صفة الفهد(٣٣)، كما انه روى للشاعر احمد بن زياد بن ابي كريمة(٣٤) قصيدة في صفة صيد الكلب والفهد ، تتكون من ثلاثة وثلاثين بيتا(٣٥) ، (وقد عني ابو نواس عناية خاصة بهذا الباب ، لانه كان من الامور التي تؤثرها الامراء ، واغلبهم مولع بالصيد ، وكان شاعرنا يخرج بصحبتهم اليه ، ويرجع وملء حقيبته صور رائعة متنوعة)(٣٦) ولما كان ابو نخيلة سابقا لابي نواس نجد الدكتور شوقي ضيف يقرر أن أبا نواس قد (صنع على مثال طردياته طرديات جديدة اظهر فيها براعة وتفوقا منقطع النظير)(٣٧) ، وهذا راي منطقي ومقبول ، اذ ليس من المعقول ان يتحفنا ابو نواس بهذه الطرديات المتكاملة دون سابق محاولة ، اما ابن منظور فيقول عن ابي نواس : (واجود شعره في الخمر والطرد ، واحسن ما فيه مأخوذ ليس له ، وانما سرقه)(٣٨) ثم يقول : (وقوله : « كطلعة الاشمط من جلبابه » فأنه أخذه من قول ابي نجم : « كطلعة الاشمط من كسائه »)(٣٩) ، فلا يجوز تأريخيا القول انه (لم يقلده غيره)(٤٠) والحقيقة انه (تأثر بالقدماء وبخاصة امرؤ القيس ، حين استعاد منه بعض صفات الفرس لكلبه(٤١) ، ولهذا كله يرجع الراي الاول الذي يذهب الى ان اصطناع الرجز كان من قبيل المنافسة لشعراء البادية مع قبول ان راي الدكتور جميل سعيد يصلح أن يكون تعليلا لانصراف أول شاعر الى وصف الصيد رجزا ، اما ابو نواس فكان متأثرا بغيره ومحاكيا له ، وطالما كنا ازاء تأريخ قضايا فنية أدبية فالمؤمل الا ينسينا اعجابنا بأبي نواس محاولات غيره في هذا الفن ، ويبدو أن هذا الشاعر كان محظوظا في فن الطرد ، حيث نسب اليه الابتكار والابداع ، شأنه في الخمريات اذ تخطى بعض المؤرخين محاولات الوليد بن يزيد وابي الهندي ، والذي يمكن قوله في ابي نواس انه اكثر من وصف الصيد ووسائله وطرائده رجزا ، وانه كما قال الجاحظ : (كان عالما راوية ، وكان قد لعب بالكلاب زمانا ، وعرف منها ما لا تعرفه الاعراب . وذلك موجود في شعره ، وصفات الكلاب مستقصاة في اراجيزه ، هذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة)(٤٢) ولم يكن في اية حال مبتدعا لهذا الفن(٤٣) ، بل يصح الراي لو قلنا : أن فن الطرد قد استكمل جوانبه ، وتبلورت ملامحه على يد ابي نواس ، واستقل مكانته بين فنون الشعر العربي في عصر هذا الشاعر الفذ .

ويوم كان وصف الطرد غرضا ضمن القصيدة فقد صيغ شعره وفق البحور المعروفة ، ولم يغلب بحر دون سواه في ذلك ، فتردد الطويل والكامل والوافر والخفيف والسريع والمتقارب عند امريء القيس والاعشى وعبدة بن الطبيب ومتمم بن نويرة وعبدالله بن سلمة وربيعة بن مقروم والاسود بن يعفر النهشلي والمرقش الاصغر والحارث بن حلزة وعبد المسيح بن عسلة وعلقمة بن عبدة وذي الرمة وغيرهم .

وحين استقل وصف الطرد وصار فنا ، وجدنا الشعراء قد صاغوه رجزا ، خلا بعض طرديات ابي نواس واحمد بن زياد بن ابي كريمة .

---

(٣٠) طبقات الشعراء لابن المعتز : ٦٦ (تحقيق عبدالستار فراج ، دار المعارف بمصر ١٩٥٦) .
(٣١) طبقات ابن المعتز : ٦٧ .
(٣٢) الفضل بن عبدالصمد بن الفضل ، ابو العباس الرقاشي الشاعر من اهل البصرة ، قدم بغداد ومدح هارون الرشيد ، ومحمد الامين والبرامكة ، وكان هو وابو نواس يتهاجيان ، وما امسك واحد منهما عن صاحبه حتى فرق الموت بينهما . انظر تاريخ بغداد : ٢٤٥/١٢ (طبعة دار الكتاب بيروت بطريقة الاوفست) ، وبعد موت الرشيد وانقراض البرامكة خرج الرقاشي الى خراسان واتصل بطاهر بن الحسين وما زال فيها حتى مات نحو سنة (٢٠٠ هـ ـ ٨١٥ م) انظر : تاريخ الادب العربي (فروخ) : ١٦٩/٢ ، وانظر : الاعلام : ٣٥٦/٥ .
(٣٣) الحيوان : الجاحظ : ٤٧٢/٦ ـ ٤٧٣ ، ٤٧٥ (تحقيق عبدالسلام هارون) .
(٣٤) من معاصري الجاحظ ، اذ نقل عنه بعض الاخبار في الحيوان الذي الفه باسم محمد بن عبدالملك الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ هـ . انظر الحيوان : ٣٤٩/٣ ـ ٣٥٠ .
(٣٥) الحيوان : ٣٦٧/٢ ـ ٣٧٣
(٣٦) تاريخ الادب العربي ، حنا الفاخوري : ٤٠٤ (ط ٣ بيروت ١٩٦٠) .
(٣٧) الفن ومذاهبه ١٢٦ .
(٣٨) ابو نواس ، ابن منظور المصري : ٦٧ (قدم له واشرف عليه عمر ابو النصر ، بيروت ١٩٦٩) .
(٣٩) ابو نواس ، ابن منظور المصري : ٦٧ .

(٤٠) الوصف في شعر العراق : ٢٣٠ ـ ٢٣١ .
(٤١) شعر الطبيعة في الادب العربي ، الدكتور سيد نوفل : ١٦٣ (القاهرة ١٩٤٩) .
(٤٢) الحيوان : ٢٧/٢ .
(٤٣) ذهب الدكتور طه حسين الى هذا الراي نفسه ، وقال في محاضرة عن ابي نواس : (وفن اخر من فنون الشعر اجاد فيه ابو نواس اجادة مطلقة ، ولعله اول من اتخذه فنا مستقلا من فنون الشعر ، فنظم فيه القصائد طوالها وقصارها ، وهو فن الصيد) انظر حديث الاربعاء : ١١٧/٢ (دار المعارف بمصر ١٩٦٤) واعتقد اني ناقشت مثل هذا الراي نقاشا واضحا .